

ذلك الاحترام الذي إذا فقد تدهورت الأمة التي تفقده كإشهاد التاريخ وهناك فريق آخر أكثر صراحة وأكثر أثره وهم يفهمون حقيقة الأمر، ولكنهم يقولون: الطوفان بمدنا. ويريدون أن يستفيدوا من فقد احترام حدود الحق والواجب، وأن يعيشوا بهذه الفائدة قبل الطوفان

وهناك فريق آخر يدرك حقيقة الأمر، ويحاول أن يزيل الخطر وأن يصلح الأمر، ولكن بقوة مشلولة، لأن الله إذا أراد بأمة سوء أشل إرادتها وقوتها، وهذه الطوائف الأربع هي الطوائف التي تكون في الأمة التي فقدت احترام حدود الحق والواجب. وإذا نظرنا إلى بلادنا وجدنا مظاهر الحضارة من مدارس ومنشآت وعمارات وصناعات وميادين فسيحة وسيارات، ووجدنا من يظن أن هذه الأمور تعصم من التدهور الذي ينشأ من افتقاد احترام حدود الحق والواجب، ووجدنا أيضاً طائفة من هذه الطوائف الأربع، ووجدنا أيضاً... فقدان احترام حدود الحق والواجب، والشواهد على فقدانه لا يمكن أن تحصى فهي كمدد الرمال على شاطئ البحر

ولكنني سأقص على القارئ حوادث تدل على أن فقدان احترام حدود الحق والواجب أمر قد تفشى حتى في نفوس أرقى الطبقات. والحادثة الأولى حدثت عندما كنت ناظراً لمدرسة ثانوية في الأقاليم، ورسم ابن أحد كبار رجال الإدارة وابن أحد كبار رجال البوليس في امتحان النقل. ويكنى أن تقول (أحد كبار الرجال) وكان رسوبهما في اللغة الإنجليزية، ورفض الأستاذ الإنجليزي مراقب تصحيح المسألة أن يزيد درجتى الطالبين في الامتحان، والقانون يقضى أنه لا يمكن أن تزداد درجة إلا بواسطة مراقب التصحيح، والنظم الحديثة التي كانت سائدة وقت الحادثة تحرم على ناظر المدرسة أن يزيد هو الدرجة، فحاولت أن أطلع أحد الكبار على حقيقة الأمر، وعلى حدود حقوقي وواجباتي كناظر مدرسة، وعلى أن القانون يحرم على زيادة الدرجة وإنجاح الطالبين، فقال أحدهم: أنا لا أفهم كيف أننا نتصرف في تطبيق قانون يتوقف عليه حياة الناس، ويتوقف عليه امتلاكهم لما يملكون، وأنت لا يمكنك أن تتصرف في تطبيق قانون (مدرسي) لا أقل ولا أكثر ثم ذهب ولم يصدق قولي. والحادثة الثانية تشبه هذه الحادثة تمام الشبه، ولكنها حدثت في مدرسة

المزروعة، وغير ذلك من مظاهر الحضارة ككثرة المباني الشاهقة الحديثة، والشوارع المنتظمة، والميادين الفسيحة، والسيارات الفخمة، ومهبطات الراحة والرفاهية، ودواعي الاطمئنان وما يجلب اللذة والسرور...

فإذا تنبه أحدهم إلى أمر ضروري وهو احترام حدود الحق والواجب وافقده ولم يجده في النفوس بالرغم من كثرة المدارس والسيارات والمهارات والمنشآت وغيرها من وسائل الحضارة، وإذا حذرهم وقال لهم إن افتقاده لا بد أن يؤدي حتماً إما عاجلاً، وإما عاجلاً إلى التدهور والخراب. عدوه متشاعماً وخذروا عقولهم تحذيراً بأن يحسبوا أن وسائل الحضارة هذه من مدارس وعمارات وميادين وسيارات وغيرها لا بد أن تجلب لنفوسهم هذه الصفة الضرورية وهي احترام حدود الحق والواجب، إذا كانت حقيقة ضرورية لا غنى عنها إذا أريد تجنب التدهور لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا كيف أن كل مظاهر الحضارة هذه لا تحمهم من التدهور والخراب إذا افتقد شيء غير مرئي ولا منظور وهو احترام حدود الحق والواجب

وهؤلاء الذين يأملون أن تعصمهم المنشآت والمهارات والسيارات والمدارس والميادين وغيرها من التدهور، لأنها في ظنهم لا بد جالبة هذا الشيء المطلوب، وهو احترام حدود الحق والواجب، ربما كانوا أقل ضرراً من الفريق الذي يتججج ويقول إن الحضارة الحديثة مؤسسة على عدم احترام حدود الحق والواجب، وإن كان هذا الفريق يصوغ قوله في قالب آخر فيقول مثلاً: ينبغي ألا نياس، فإن التفكير الحديث قد قلب الأخلاق رأساً على عقب، وألنى الأخلاق القديمة وجاء بأخلاق تناسب رجل المستقبل. أو يقولون: إن الإنسان الذي يريد أن يكون رجلاً ينبغي أن يحرر نفسه من قيود الأخلاق القديمة. كأن الفلسفة الحديثة يمكنها أن تعطل سئمة من سنن الحياة، وهي سنة تدهور الأمم إذا فقدت احترام حدود الحق والواجب... وبما يدعو إلى الأسف انتشار هذه النغمة بين بعض المتفكرين المفكرين الذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر فهماً لحقائق الحياة الثابتة والذين يستطيعون أن يروا كيف سرت هذه الحقائق في الماضي في حياة الأمم، والذين ينبغي أن يفهموا أن ما يدعون إليه من الأخلاق الجديدة ما هو إلا عدم احترام حدود الحق والواجب

من حبرنا القلمي

يدهشني في حياة الملكة فكتوريا تلك الإرادة التي استطاعت بها أن تفصل بين « واجبها » كملكة تحكم ، وبين « قلبها » كمرأة تحب . إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير « ألبرت » ، ومع ذلك أقصته أول الأمر في نسوة عن دفة الملك وشئون الحكم ، وهو الرجل الذي الواسع الاطلاع ، فكانت تدرس هي معضلات الدولة وتركة هو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى . آه ! ما أحوجني أنا إلى مثل هذه المرأة التي تركني أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى ، وتنصرف هي إلى حل المسؤوليات وحل مشاكل العيش ... شيء آخر يعجبني في تلك الملكة العظيمة : إنها كانت تقرأ . إني أحب الملوك والقادة الذين يقرأون . تلك هي الوسيلة التي بها يعرفون حاجات شعبيهم . لقد قرأت فكتوريا بعض قصص « ديكتر » التي يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة ، وأحست وهي في أبراج قصرها ما يعانيه ألوف من البشر يطوهم ظلم أرستقراطية جامحة بمراتبها الفخمة وخبوؤها المظلمة ، فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن في بلادها عالم آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس ولا يلتفت إليه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرئعة لم يهدأ لها قرار حتى مدت يدها إلى أولئك المتاكيد ، فرفعت عن أعناقهم نعال الفئحة الباغية ، وأطلقتهم يمشون في هواء الحرية والرخاء كما يعيش الآدميون . في مصر والشرق أيضاً بنى وبناء ، وظلم وظالمون من جميع الأنواع ؛ وفيهما كذلك فقر وشقاء وجهل وظلام في كل ركن من الأركان . ولقد يسألني سائل : أين هو الأديب الذي يصف كل هذا البلاء ، ويصور هذه الدنيا التمسمة المهمة التي لم تمتد إليها يد إصلاح منذ أجيال ؟ جوابي على هذا السؤال بسيط : هات لي من يقرأ ، أحضر لك من يكتب . إن الطاهي لا يوجد إلا إذا وجد الآكلون . إن الشرق لن يتغير حتى يعلم قاده كيف يملؤون أدمغتهم بكل ما يمكنهم من فهم حال شعوبهم . إن ربان السفينة لا يركب البحر قبل أن يعرف بعض أسرار الريح والماء وبجود السماء . فلنرج دائماً ممن يسلك بالزمام أن يسلك أيضاً بالكتاب

توقيع الكاتب

قريبة من القاهرة ، فقد رسب أيضاً طالب في اللغة الإنجليزية ، ورفض المراقب زيادة الدرجة وإنجاح الطالب ، وأبي أبو الطالب ، وكان من الوجهاء العظام ، إلا أن يحمل لي ضغينة شديدة وأن يثير ضدي غيره من الناس وإن كنت لا أملك وسيلة قانونية لزيادة الدرجة إذا رفض مراقب اللغة الإنجليزية أو غيرها من المواد لإنجاح الطالب . كما أتى ما كنت أملك وسيلة لمنع مراقب التصحيح من إنجاح الطالب لو أراد إنجاحه ، ورأى أنه يستحق النجاح ، وفي هذا العجز عن منعه من إنجاح الطالب ما يدل على العجز عن منعه من إسقاطه مادام يستعمل حقه القانوني وما دام الطالب يستحق التقدير الذي قدره له مراقب التصحيح

وقد اتضح لي أن أولياء أمور الطلبة في مثل هذه الأحوال يريدون أن يوسطوا بعض المشغلين بالتعليم فيزيد هؤلاء النار أجيحاً ، وقد ذكرت الآن حادثة ثالثة حدثت في المدرسة الأخيرة وهي أن طالباً أهان أستاذاً فرفت الطالب بضمة أيام ، فجاء إلى والده وقريبه وهما من الأعيان ومعهما ثالث من المشغلين بالعلم والتعليم ، وحاولوا من غير تلاف بل بوجهتهم ونفوذهم ، وقبل أن يعرفوني بأنفسهم أن يحملوني على نقض ما أبرمت ، ورأيت أني لأملك حق السماح للطالب أن يهين أستاذه ، فرفضت ، فحملوا لي الضغينة وكان أشدهم ضغينة ذلك المشغل بأمر التعليم . وذكرت حادثة أخرى مثلها حدثت في مدرسة من مدراس الوجه البحري ، وتدخل أيضاً أحد المشغلين بالتعليم بخطاب شفاعته من القاهرة فتلطفت في رد طلبه ، فحمل لي ضغينة العمر .

والذي أعرفه أن الطلبة كانوا قديماً لا ينقمون العقاب المدرسي إذا عرفوا حسن نية موقمه ، ولكن الحال قد تبدلت الآن لسوء قدوة الكبار . فإذا كان بين الطلبة من لا يحترم حدود الحق والواجب فقد لتفوا ألا يحترموه ، بل لتفوا أن احترامه ضمة ومهانة . وكثيراً ما كنت أشاهد أن الطالب قد يتذمر من العقاب ولكنه يعود إلى الصفاء والولاء . أما الشفيح الخذول فإنه لا ينسى أبداً أنه قد رفضت شفاعته ، وهذا كان قبل أن تسرى طباع الكبار إلى الطلبة . ومن عجائب الدهر أن أشد الناس لوماً للطلبة وتعنيفاً لهم وذماً لسلكهم هم في كثير من الأحيان أسوأ قدوة للطلبة ، وهم على نفس الطباع والخصال التي يذمون بها في الطلبة والتي سرت منهم إليهم ، وهؤلاء هم الكبار على اختلاف طبقاتهم وأعمالهم .

عبد الرحمن شكرى